كتاب
من هدى القرآن
(فى أموالهم)
تأليف
أمين الخولى

من هدى القرآن
(فى أموالهم)

ألف هذا الكتاب أستاذنا أمين الخولى.

تحدث به أحاديث مرسلة عبر الأثير فى الخمسينات وأصدره سنة ١٩٦٣.

وصدر بإهداء، نحن فى حاجة إليه ١٩٩١ بعد ثلاثة عقود من عمر الأيام.

إلى

الذين يريدون ليحلوا مشكلة المال
حلا تطمئن له القلوب بهدى القرآن

تكلم الأستاذ الخولى عن الواقعية والمثالية فى القرآن الكريم باعتباره يبدأ من الواقعية وينتهى إلى المثالية، مثالا بصيرا فى حكمة التدرج والأخذ بيد الضعيف...

ومن الضعف... الجهل

ومن الضعف... التخلف

ومن الضعف... الجمود

وعن «الواقعية» و «المثالية» فى موضوع المال ووجوه إنفاقه يقول: (القرآن، كدأبه، الذى أنساه منه، يجمع بين الواقعية والمثالية فى ذلك التدبير، جمعا لبقا، مرنا، مسايرا للحياة، مهيئا للإنسانية أسمى ما تستطيع التطلع إليه من الآفاق.

obeikandl.com

فهو حين يحمى الملكية الفردية واقعى: لا يفاجأ الناس بتجريدهم من أموالهم، تجريدا يفتر همتهم، ويثنى عزائمهم، ويقعدهم فلا يبتكرون ولا يجددون، ولا يذودون عن حماهم.

ثم هو حين يهز أسس هذه الملكية الخاصة، كما رأينا، يكون مثاليا: يكفكف من غلواء الأغنياء، ويزلزل صلتهم بأموالهم، ويجعلها للناس جميعا، وأصحابها عليها أمناء مستخلفون، وهو مال الله، لا مالهم.

وبهذا التعديل الدينى الأساسى، السماوى الصبغة، الإلهى الروح، يوقيهم أخطار الجموح، فى التملك، والوصول إليه بأى وسيلة، وإهدار الخلق، والفضيلة، والإسراف فى التمتع، ونسيان حق الجماعة، أى حق الله، والذى هو صاحب المال.

ثم يمضى الناس، فى طريقهم، يتقدمون، ويتعلمون، ويرقون ويتطلعون إلى المثل السامية، فتهيىء لهم مثالية القرآن من ذلك ما لو صار عموما محضا واشتراكا كاملا، ونسيانا للذات تاما، لما رأى فيه القرآن بأسا، ولا حال هديه دونه.

فليهذبوا غزيزة التملك ما استطاعوا، وليعدلو بيئتهم ما تساموا فتلك مرامى القرآن وتوجيه هديه).

والأستاذ الخولى يرفض القول باشتراكية الإسلام الذى يفتح الباب لكل صاحب مذهب أن يلصقه بالإسلام اعتسافا أو إجحافا.

(وما أحسب إلا أن القول باشتراكية الإسلام اليوم، أو برأسماليته أمس، أو بشيوعيته غدا لا يفترق عن القول بأن الإسلام فى أى وقت، كان هو مذهب كذا فى العقائد، أو هو مذهب كذا فى العبادات أو المعاملات لأن الإسلام بقرآنه أسمى مرمى، وأبعد هدفا... وأعمق تناولا وأخلد بقاء من كل أولئك).

وهو حين يرفض أى مشابهة بين الإسلام وغيره من المذاهب، إنما يعلى من مثالية الإسلام التى تهيئه للخلود. ومن هنا كان عنوان هذا الفصل: (**مثالية مذهبية**).

حتى يقرأ فى أى بلد إسلامى.

ويصل لأى عصر إسلامى... دون أن يلم بشىء من مذهبية.

وأورد الآيات الكريمة فى الموضوع من سور: النور، والشورى، والعنكبوت، والحديد، وآل عمران، وفاطر، والبقرة، والإسراء، والأحقاف، والزخرف... لنتذكر ما يشف به الحس القرآنى الكريم، فى ذكر القرض الحسن إذ يسمى هذا الإعطاء والنضال فى سبيل الخير العام، قرضا حسنا، وقرضا لله تعالى، فلا يسميه منحا ولا تفضلا، أو ما يشبه هذا.

ويتحدث عن رغبة التملك على مستوى الفرد والجماعات والأمم... هذه الرغبة فى الإنسان على اختلاف شئونه وتغير ظروفه، سواء فى الأولى، أيام حياة الغابة، أو فى خطواته الحضارية على تمادى الأزمنة: نصف متحضر، أو متقدما فى الحضارة، بعيد الأمل فى التمدين... يطلقها فى أول حاله، أو ينظمها بالأديان والشرائع والأخلاق، فى مختلف أعصره...

إنها رغبة التملك التى تبدو فى فجر الحياة، ملكا شائعا عاما، ثم ملكا تنظم أسبابه، وانتقالاته، وتحدد فيه الحقوق والواجبات والمشروع منه، وغير المشروع... والإنسان فى كل حين هو الإنسان... يرضى تلك الرغبة بمختلف الوسائل والأساليب يقنع الخيرون منه بما حل، ويطمع الأشرار منه فى المحرم، بما تدفعهم إليه الشهوة المسيطرة والرغبة المتحكمة، سواء فى ذلك الأفراد الآحاد والجماعات من أمم وهيئات.

يقول الأستاذ الخولى (فى تبين المسلك القرآنى فى توجيه الحياة العلمية نرى أول ما نرى، أن هذا القرآن يحرص أول ما يحرص، على أن يترك للعقل حريته كلها فى مواجهة مشكلات الحياة وواقعاتها... وأساس ذلك كله أنه لا يقدم تفصيلا جزئيا لمشكلة من المشكلات كمشكلة التملك أو غيرها...

على حين لا يرفض من قول التجربة الصادقة وما تقضى به المصلحة الحقة رأيا، بل يتلقى ذلك كله، فى رحابة صدر، تقدر التطور وتقدر ما يجد للناس من شئون تتغير على الأيام وتختلف باختلاف الزمان والمكان، فلا يحدها تفكير عصر معين، ولا يوقفها تحديد عقل بذاته فى مستوى محدود، ولا يعوقها ألا يكون السابقون ممن فسروا الدين أو مارسوا التشريع لم يشعروا بها، ولم تحتج إليها حياتهم فى عصرهم... لأن ذلك كله من عمل الناس لا يحتكم فى الأصل الأول والأساس الأكبر من هدى القرآن، الذى اجتنب هذه الجزئيات المتغيرة ومن تلك الكليات الواسعة الشاملة.

أقر القرآن الكريم حب الإنسان، المال مقدرا للواقع خبيرا به لطيفا فى تناوله. يقول الله جل شأنه : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .آل عمران:١٤ .

وفى الوقت نفسه ينهى عن الإعجاب والاغترار بالمال (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم) الأنفال ٢٨ .

وعن المفسرين لمنهج القرآن الكريم فى هذا الموضوع وضح الكتاب كيف يتكيف التفسير بظروف العصر فيتسع الفارق بين الطبرى فى القرن الثالث الهجرى وبين الزمخشرى والنيسابورى بعده، بعدة قرون.

وحين حبب الله إنفاق المال فى سبيل الله وجعله (... كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، فى كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) البقرة ٢٦١ .

والانفاق فى سبيل الله يكون فى عصرنا الحاضر باستثمار أموال المسلمين فى بلاد المسلمين تعلم جاهلهم مدارس ومعاهد ومراكز بحث وجامعات.

وتشفى مريضهم مستشفيات ومصحات.

وتفتح باب العمل لعاطلهم مشروعات استثمار فى الصناعة والزراعة وتكريم الحياة بالقيمة.

وتحصن أوطانهم بالعلم والعمل وأسباب القوة جميعا فلا يكون بأسهم بينهم شديدا تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى بل رحماء فيما بينهم أشداء على الأعداء وحدهم...

يومئذ يملك الإسلام الكلمة والقرار.

ويفوز المسلمون بعز الدنيا ورضوان من الله أكبر (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل، والله بما تعملون بصير) البقرة ٦٥ .

وغير هذا وبعيد عنه، الإسراف المبدد للمال فهو طرف مقابل للبخل، إذ يرغب الراغب فى المال ليسرف فى نوال لذاته به، وإرضاء شهواته عن طريقه، لأنه الذى يمكنه من ذلك، فهو يحب أن يملك كثيرا ليصرف كثيرا... وذلك جموح أيضا فى غريزة

التملك وهو كما يقول الأستاذ أمين الخولى ما يعمد إليه الناس فى البيئات التى لم تصب من الرقى البشرى حظا كبيرا.

ويسجل الأستاذ أمين الخولى ظاهرة قرآنية تدق على النظر العجلان هذه الظاهرة **هى التعبير بالإيتاء** فى موضوع الزكاة لا يغير هذه اللفظة فى بضع وعشرين مرة على كثرة ما قال عن الزكاة فتراها فى صور متعددة: أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة... وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة... والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة.

يستعمل القرآن الكريم لفظ (الإيتاء) من **دقة ورقة** فإن المادة كما يقول الأستاذ الخولى ترجع فى أصل معناها جملة إلى الإستقامة فى السير والسرعة فى السير، والسرعة فى العطاء كما أن منها المجىء بسهولة ومن هنا تحس إيماء التعبير القرآنى حينما يخصها بالتعبير عن أداء الواجدين لزكاة أموالهم حين يؤدونها لأصحاب الحق فيها... ويؤدونها من مال الله الذى آتاهم، وينفقون مما جعلهم مستخلفين فيه، فما أقوى أن يشعر التالى المتأمل من قريب وفى قوة: أن الحرص على استعمال هذه المادة فى أداء الزكاة إنما هو التعبير عن **إعطاء فى سرعة** واتجاه إلى الإعطاء يتم فى **سهولة** والسير فيها على أنفسهم ويكمل التلميح التصريح فى رياضة القرآن للمالكين ودفعهم إلى الإعطاء **السمح الرضى السهل السريع** فى الزكاة من الواجد لغيره فلا يشعر معه أنه متفضل ومعط وذو يد عليا وينتفى ذلك الشعور فى نفسه كلما زكت روحه، وسمت نفسه وينبه من ليس له كبير حظ من هذه الرقة فيكون ذلك هو الشعور الشامل، والنغم المتسق فى حديث القوم عن الإعطاء.

وكثير من الأتقياء فى خلوص من يقول حين يعطى:

(أعطاه ربنا ما أعطاه).

ويجىء وصف الله تعالى بأنه هو : الذى يأخذ الصدقات **قصدا**... إن هذا وما إليه من صنيع القرآن لا يجىء عفوا، ولا يكون اتفاقا بل هو روح المعنى ونفحة من سر الصياغة يلتمسه الشاعرون بروعة الفن القولى فى القرآن... الذى هو مصدر الهدى النفسى والاجتماعى الذى تصلح به الإنسانية مهما يكن تقدمها العلمى والعملى.

ومن اللفتات المهمة فى هذا الكتاب، وقفة الأستاذ أمين الخولى عند كلمة (إحسان) فى القرآن الكريم مبددا ما يقع فيه القارىء من التباس... فالإحسان ليس كما يفهم الناس

التفضل والإنعام ولكنه **التمام والأداء والتصرف الحسن** (فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف، وأداء إليه بإحسان).

إذ يقول جل شأنه (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) البقرة ٢٢٩.

وكذلك قوله: (إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) النساء ٦٢.

أو قوله فى الوصية بالوالدين: (وبالوالدين إحسانا) البقرة ٨٣.

ومعاذ الله أن يكون فعل الولد مع الوالدين إنعاما وامتنانا وتفضلا.

ويسأل سائل الرسول عليه السلام: ما الإحسان؟

فيقول: هو أن تعبد **الله**، كأنك تراه.....،

فهو بهذا البيان إخلاص به يتم الإسلام والإيمان.

وفى المثل الشعبى المصرى (لاقينى ولا تغدينى) إحساس دقيق ورقيق يرتفع على المادة إلى عالم المعنى بموداته ولمساته.

ومراعاة شعور الناس والبسطاء خاصة ممن تمثل الأمثال تجارب حياتهم، يجب أن يرعاه ويقدره كل من له صلة بالحياة العامة.

وفى فصل (**الاتزان**) عرف الأستاذ أمين الخولى الوسط فى الآية الكريمة (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا). بأنه الاتزان.

وهو يعلم يقينا ما تقوله فلسفات الأخلاق فى (الوسط) بأنه المنطقة بين طرفين من مثل قولهم الفضيلة وسط بين رذيلتين وهو كما يقول الأستاذ الخولى (مسلك فى فهم القرآن لا أهتم له، ولا أعبأ به، رغم خلابته وبريقه: بل أؤثر فهم الكتاب الكريم فى حدود المعنى اللغوى، الذى عرفته العربية، عند نزول القرآن، ثم أقبل ما يتحمله هذا المعنى فى أصله اللغوى، ومعدنه العربى، من حقائق... هى فى فطرتها أفضل عندى وأولى، من ذلك كله، بل هى أبقى وأخلد، وأفسح أفقا، من هذه المعانى المتكلفة المستعارة المجتلبة).

أقول: هل لو كانت أمة الإسلام، أمة بالمعنى الجامع، تستهدى هذا النص بل تلتزم به هل كانت الساحة الإسلامية تعج بما تغص به من فقر مدقع... وغنى فاحش.

من حرمان مذل... ورخاء مفسد
من كبت مرير... وتبجح غليظ أشر
من أوضاع مهينة... وأوضاع منتفخة فى خيلاء
سؤال:

وحسب الجواب أن يكون الأكرم والأخلد صانعى النهار وأصحاب الحضارة بعلومها وفنونها وقيمها.

(ولكل درجات مما عملوا، وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) وإن ارتباط المنزلة والدرجة بالعمل ذلك الارتباط القوى الوثيق مصداق لما نقول.

ونسمع حولنا آراء تتوزع الأرض فديمقراطية وشيوعية ومبادىء هادمة ومبادىء بانية وليت أيا من هذه المبادىء – دون تحديد – يستهدف كرامة الآدمية... كرامة الإنسان (شعورا يدفع إلى عمل، فتكون مقاومة الشر بالخير... ومناضلة الفساد بالإصلاح إصلاحا حقا، جادا عاملا نافذا، ناجزا...) ولكن...

وصاحب الكتاب يسخر مما يعج به مجتمعنا من تناقض حتى فى الخطوط الكبيرة فيرى المرء العجب العجاب من ذلك التنافر، كما يقول الأستاذ الخولى فيسمع عن الفقر فى المسرح، الموجع المؤلم.. وعلى أمتار من المسرح يسمع عن الفقر فى المعبد نقيض الذى سمع به فى المسرح... ومايزال يجد ظواهر هذا التنافر المكروه منتشرة فيتحدث إليه المتحدث فى مجلس عن آداب الفقراء وفضل الفقراء، وتقدم إليه فى ذلك كتب، كما أنه يحاضر إلى جانب ذلك عن آلام الفقراء، ومصائب الفقراء وجنايات الفقر... فإذا الفقر يسعد به الناس!! وإذا الفقر تبتئس به الأمم.. ومجتمعنا فى أمر مزيج، وموقف مختلط متضارب... فما هذا الفقر المشقى وما ذاك الفقر المسعد؟.

والحقيقة والصواب كما يقول الأستاذ الخولى:

إن الفقر فى اللغة الضعف، وأن الفقر كالضعف وزنا ونطقا، فهو الفقر – بالفتح – والفقر – بالضم – كالشعف والضعف بهما.

وأصل الفقر لغة من كسر فقار الظهر وعقد سلسلته فيقال رجل فقير إذا كان مكسور فقار الظهر فالفقر ضعف بسبب قلة المال، وكأنما المال هو العمود الفقرى للحياة، وقد كسر

فى من أعوزه ذلك المال إذا انكسرت فقار ظهر حياته فسمى فقيرا، كما سمى مكسور فقار الظهر الحسى فعلا فقيرا.

ويغوص الرجل فى القرون السابقة ليجد أصل هذه المشكلة من مشكلات الاجتماع من مثل قول بعض الأقدمين (خير الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها!! والفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن!! على خد الفرس، وتحفة المؤمن فى الدنيا الفقر!! إلى فصول فى مزايا الفقر ضمها كتاب السلوك!.

وحاشا لله أن يعزى هذا إلى الآية الكريمة (يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله. والله هو الغنى الحميد) فالمراد هنا فقراء إلى فضل الله الغنى المطلق... فلا غنى فى الواقع إلا غنى واحد... هو الله وكل من عداه محتاجون إليه، ليمد وجودهم بالدوام... فهم فقراء فى التمرد... فقراء فى التجبر وليسوا فقراء فى المال ولا فقراء فى الحرمان ولا فقراء إلى أحد يمنعهم أو يعطيهم... يذلهم أو يمن عليهم.

لقد كان الرسول الكريم يتعوذ من الفقر ويقول: اللهم إنى أعوذ بك من الفقر... وكان من صحابته، والأرجح أن يكون على بن أبى طالب، من يقول (لو كان الفقر رجلا لقتلته) وهنا نقول:

الفقر فقران:

* الفقر المادى وهذا تعوذ منه الرسول على قناعة فيه من غنى النفس عنده.

* الفقر إلى الله مهما كان الإنسان قويا بالمال أو الجاه... أى الفقر الكابح لجماح النفس الشاعر بحاجته إلى قوة فوقه فهو يجنب من تحته قوته، لأن قوة أعلى منها تردعها... وإنما كره الرسول عليه السلام الفقر المضطر المحتاج، المذل، القاتل للكرامة والآدمية، الممزق للوحدة المثير للحقد والفرقة والفوضى والاضطراب.

هذا هو الفهم المستقيم للإسلام فى أفقه الأعلى وهذا بعينه ما فهمه الصوفية أنفسهم حين سموا أنفسهم الفقراء.

لقد شبه الإمام الغزالى، المال، فى كتابه (إحياء علوم الدين) بأنه كالماء... والله سبحانه يقول (وجعلنا من الماء كل شىء حى) وبذلك نستطيع أن نقول مع الأستاذ الخولى إن تتمة تشبيههم للمال بالماء: إن منه حياة الفرد حياة كريمة، وإن منه حياة الجمع حياة عزيزة، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين..